تحليل الخطاب القرآني في جامعة تلمسان: "كتاب البنية السّردية في القصص القرآني" لمحمد طول أنموذجاً

–قراءة وصفية تحليلية–

Analysis of Quranic discourse at the University of Tlemsan: "The Book of Narrative Structure in Quranic Stories" by Mohammed the Length of a Model

Analytical descriptive reading -

أ.د. الحاج جغدم[1*]، د. كمال عمامرة[2]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)، djourdemhadj@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر) kamal@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2022-02-21 تاريخ القبول: 2023-03-11 تاريخ النشر:2023-06-10

ملخص البحث

تروم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ"تحليل الخطاب القرآني في جامعة تلمسان: "كتاب البنية السّردية في القصص القرآني" لمحمد طول أنموذجاً–قراءة وصفية تحليلية– إبراز مقومات القصّة وأسلوب السّرد القصصي في القرآن الكريم، واستظهار اللّغة وأسلوب السّرد القصصي في القرآن الكريم.

كلمات مفتاحية: الخطاب؛ البنية؛ السّرد؛ القصص؛ الأسلوب.

Abstract:

This paper tagged with "Analysis of Quranic Discourse at the University of Tlemsan:" The Book of Narrative Structure in Quranic Stories "by Mohammed the Length of a Model-Analytical Descriptive Reading-Highlighting the Essentials of the Story and the Storytelling Method in the Holy Quran,

Keywords: Speech; Structure; narrative; stories; Style.

1. مقدمة:

*المرسل: الحاج جغدم

كان القرآن الكريم ولا يزال مورداً أساسياً تتهافت إليه النفوس، وتنتصر له العزائم، حيث تتوافد الهمم بكلّ عصر ومصر؛ إذ يجد الباحثون في بيانه حلاوة وطراوة، مستظهرين إعجاز آياته، فهو الذي لا تنقضي عجائبه على مرّ الأزمان.

وعلى هذا الأساس، تسابق كثير من الباحثين في العالم الإسلامي عامة، وفي الجزائر خاصّة إلى تحليل الخطاب القرآني في ضوء مناهج التّحليل النقدية منها واللّسانية، وفق عديد المقاربات، على غرار المقاربة اللسانية، فالمقاربة البنوية، فالمقاربة السيميائية، إضافة إلى التّحليل السّردي.

أولاً: مقومات القصّة وأسلوب السّرد القصصي في القرآن:

إنّ المستقرئ لمضمون الباب الأول الموسوم بـ"مقومات القصة، وأسلوب السّرد القصصي في القرآن"، يستكشف أنّ طبيعة الحدث في السّرد القصصي في القرآن الكريم يتشكّل من صورتين اثنتين:

أ- صورة تتألف من حدث مألوف اعتاد الناس عليه؛ يؤول إلى آخر يكْسِرُ السنن، وينأى عن الألفة ويخرق المألوف، وقد يكون هذا اللّون نتيجة للأوّل ونهاية له، ويسوق الخالق سبحانه وتعالى من الوعد والوعيد، ما يجعله بصائر للناس ودساتير تنوير وهداية، وسجلاً حافلاً بحياة الأولين والأمم التي خلت، ويُزيح الستائر عن صحائف منسية لم يكن للأمين عهد بها لولا أن أعلمهم بها الله حين نزّلها على قلب نبيّه.

ونسوق في هذا النمط الحدثي المتكون من الوقائع المألوفة الآيلة إلى غير المألوفة ما ورد في قصة نوح تلك التي كانت بين نوح وابنه، حين أراد استنقاذه من الطوفان، فأبى الابن وجادل أباه؛ إذ زعم الابن لأبيه في محاورة، أنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، وأفاده الأب النبيُّ بأنه لا عاصم من أمر الله إلاّ من رحم، قال تعالى سارداً هذه المحاورة:﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ** ﴾[2].

والمتأمّل في هذا الخطاب، يجد ان الحدث غير المألوف، ترتب على قول ابن نوح من فعل وأداءٍ، نتمثله في صعوده إلى الجبل وهلاكه حين فاض التنور، وبدأ الطوفان وحال الموجه بينه وبين أبيه، فكان من المغرقين؛ إذ كان فعل الطوفان امراً غير مألوف بتلك الصورة عند البشر، لم يصدقه ابن نوح نفسه، ولم يكن نوح أيضاً يعرفه إلاّ بما أوحى إليه الله من علائمه ونذره، فصار هذا الفعل هو الشطر الخارق في السّرد القصصي القرآني[3].

ب- أعمال تبدأ برؤيا؛ إذ تتشكل من لون تتولى زمامهُ رؤيا ترسم معالم المستقبل لشيء سوف يكون، فتتمشى الأمور في هذه المنطقة المجهولة من التنبؤ والحدوث، تستنطق أعماق الإنسان بالترقب، حتى إذا انكشف الستر عمّا يحقق الرؤيا ويكون مصدقاً لها، ليُختتم الحدث.

وعلى هذا الأساس، فإن الأسلوب المعجزْ الذي ساق به القرآن الأحداث، من رؤيا، ثم أحداث، ثمّ تحقّق الرؤيا، ما تشكل في قصّة يوسف عليه السلام، حيث ابتدأت برؤيا أبصر فيها يوسف في منامه أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر في سجود له، قال تعالى على لسان يوسف:﴿ **يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾[4].

والمتصفح لهذا الخطاب، يستنتج أنّ ما قصّه يوسف على أبيه مما رأى في منامه من رُؤيا، كانت بمثابة بؤرة لإثبات المشاعر المتعارضة؛ إذ زادت من حبّ يعقوب ليوسف عليهما السّلام، وهذا بدوره أشعل نار الغيرة وأثار حفيظة الحسد في أنفس إخوة يوسف، الأمر الذي ترتّب عليه التخطيط للمكيدة، حيث نفذ الإخوة المكيدة وألقوا يوسف في الجُبّ بعد العدول عن قتله، لتلْتَقِطه قافلة كانت متجهة نحو مصر، ليباع هناك لعزيزها وفي بيت العزيز تراوده عن نفسه امرأة العزيز، فلا يتمثل لرغبتها ويُزجُ في السّجن، وفيه يعبر رؤى الفتيين، وكذلك رؤيا ملك مصر، ليخرج من السجن إلى خزائن مصر، حيث يولّيه ملكُها عليها[5].

2- الزّمن والسّرد القصصي:

إنّ للزمن في بناء القصّة دوراً كبيراً، فهو يعطي للحدث صيغة خاصّة تشير للحين الذي وقع فيه، وتضفي على الجو العام له ظلالاً توحي بأبعاد دلالية، تسمح بها حدوث التأويل، وقد انبنى على عنصرين اثنين:

أ- التّحديد التاريخي للأحداث:

ينقل السّرد القصي في القرآن الزمن الذي وقعت فيه الحادثة، مما يجعلها مبعثاً للجدل، من حيث التصديق أو التكذيب من حيثُ أن الظرف الزمني الذي اختاره إخوة يوسف لتنفيذ المكيدة، مثال على ما أوردنا؛ إذ يقول تعالى: ﴿ **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾[6].

وعليه، نستنتج ان الظرف ورد "عِشاءً" في حادثة المكيدة، وهو يحمل صفة إيحائية تدل على الزمن المادي الذي احتضن حادة المكيدة، وصِفة إيحائية تومئ إلى أبعاد قد تظهر من وراء اللفظ التصريحي، ذلك أنّ هذا الميقات من الليل ساعد على أداء الفعل، دون أن يعلم أحد من أمر المكيدة شيئاً، ومن جانب آخر ينِمُّ عن كذب أبناء يعقوب عمّا دعوه من أكل الذئب لأخيهم يوسف وهم عنه غافلون.

ب- الإعجاز بذكر الزمن:

يرد ذكر الزمن أحياناً في السّرد القصصي القرآني، وكأنه المقصود لذاته، ليبين وجه الإعجاز الإلهي في استعماله، وليوضح بأنّ الله، ليس خاضعاً لما يُخلقُ من أزمان مثلما نحن خاضعون، وإنما هو فوقها جميعاً ومتعال عليها[7]، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾[8]. فالزمن هنا سُخِّر مع الحادثة ذاتها.

3- المكان والسّرد القصصي:

يلعب المكان دوراً مهماً في بناء القصّة وفي تركيبها؛ إذ يعدّ الإطار الذي تنطلق منه الأحداث، وتسير فيه الشخصيات بل يتجاوز كونه مجردُ إطار لها أحياناً، ليصبح عنصراً حيّاً فعالاً في هذه الأحداث وهذه الشخصيات، ومشحوناً بدلالات اكتسبها من خلال علاقته بالإنسان[9]. وقد لاحظنا حالتين لذكر المكان، أحدهما إرفاق الأحداث بالأمكنة، وثانيهما في إخلاء الأحداث من مكان معلوم.

أ– إرفاق الأحداث بذكر المكان:

والمتأمل في قصة "عاد" يجد ما ورد فيه ذكر للمكان؛ إذ جاء ذكره ذكراً صريحاً. يقول تعالى:﴿ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ**﴾[10]. والأحقاف: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل؛ حيث كانت مساكن عاد بهذه الرمال، وهو إقليم الرمال الممتدة من حضر موت وبحر عدن.

ومن المواطن التي تعيّن فيها ذكر الأماكن كذلك قصة الإسراء، فإن ذِكْر المسجد الحرام الذي انطلق منه الرسول(ص) والمسجد الأقصى الذي انتهى إليه، هو ذكر له، لأنّ ما كان معروفاً عند القريشيين هو أنهم كانوا يقطعون المسافة بين المكانين في شهر بأكمله، والرسول (ص) قطعها في ليلة واحدة يقول تعالى:﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾[11].

ب– إخلاء الأحداث من المكان:

إنّ السرد في بعض القصص القرآني لم يأتِ على ذكر المكان، ولم يُجْرِ له ذكراً، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك، ومن القصص الذي عدلَ فيها السرد عن ذكر المكان، قصة الرجل الذي

مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فتساءل كيف يحييها الله بعد موتها، فأراه الله تجربةٌ حيّة في نفسه وفي حماره، سجلها الله في قوله تعالى:﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾[12].

والمستقرئ لهذا الخطاب القرآني يجد أن الحكمة جليّة من عدم إثبات المكان الذي كان سيعد نافلة لو ذكر، لأنّ الأحداث ليست بحاجة ملحّة له ليتحوّل معه؛ إذ لم يشترك معه في الحدث شخوص آخرون لهم مواقع أخرى[13].

ثانيا: الشخصية وأسلوب السّرد القصصي:

إنّ الشّخصية في السّرد القصصي في القرآن تتمظهر باسمها في معظم المواطن–مثلما نلحظ في حالة الأنبياء. فالشخصية في السّرد القصصي القرآني لها حدوث فعلي يمتد بأثره إلى الحاضر، وهي تقوم بدور الهداية المستثمرة. ولذلك تأخذ أبعاداً وأشكالاً من مثل: البعد الجسمي في شاكلة شخص يوسف أو النبي موسى، أو طالوت. كما أنّها مزوّدة بأساسها الاجتماعي فيما يمكن أن نجده الآن مع الحقول الاجتماعية، كالفقيرة، والمتوسطة والفاحشة الثراء، وقد نجدها مدعومة بخصيصة نفسيّة.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الشّخصية في السّرد القصصي في القرآن الكريم تأخذ أبعاداً نُوجزها في التّالي:

1- البعد الجسدي للشّخصية.

2- البعد الاجتماعي للشّخصية.

1– البعد الجسدي للشّخصية:

يتجلّى رسم الشّخصيات في السّرد القصصي القرآني في تحديد الأبعاد الجسميّة، ما يتماشى وقدرات العقل البشري، وحواس البشر ومؤداه تحويل ما تقرأه إلى صور ذهنيّة من مثل ذلك يتمظهر في قصص سيدنا يوسف، وشخصية سيّدنا موسى وشخصية فرعون.

أ– شخصية يوسف:

إنّ المستقرئ لقصة يوسف (عليه السلام)، يجدها تتجاوز أنها مجرّد هيكل لشخصية، إذ "ألمع لنا السّرد القصصي بسمات جسديّة خاصة بشخصية يوسف عليه السلام، كان لها دور أساسي في إضاءة صورته لنا واكتساب أحداث قصته واقعيّة ونفوذاً، ابتداءً من طفولته، بطلب إخوته من بعضهم العمل على إخلاء وجه أبيهم منه بعدما تأكد لديهم هيمنته على محبّة أبيه"[14].

والشاهدً، هاهنا في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾[15].

فالمتأمل في قوله تعالى:﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾[16]، يجد أن هيمنة يوسف على محبة أبيه" لجاذبية أكيدة فيه، تأكد تفرده بها بعد ذلك في الفعل المحوري في القصّة، وهو مراودة امرأة العزيز له"[17]. وتتأكد هه التسميات من خلال أقوال النساء عن امرأة العزيز. يقول تعالى:﴿ **تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾[18].

ب– شخصية موسى:

أمّا القارئ المتبصر لقصة سيدنا موسى، يجد أنّ السرد رسم لموسى صورة جسديّة أومأت لملامحه من خلال أعماله حيناً، ومن خلال أقوال الذين أسهموا معه في الفعل أحياناً أخرى، وهي الصورة التي أعطته مسوغات الشخصية المحوريّة إزاء فرعون، والملأ من قوم موسى وفرعون معاً.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الكشف عن الصورة الجسديّة يتجلى في:

– الاطّلاع المباشر من القرآن الكريم، من خلال سرده لصفات موسى، حيث عرفنا بأنه بلغ حدّاً من الاستواء والنضج، فصار أهلاً لتلقي الحكمة والعلم[19]. يقول تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾[20].

– الإنباء عن البعد الجسدي عن طريق الفعل الذي زاوله موسى ضدّ القبطي، حين استغاث الإسرائيلي بموسى[21]. يقول تعالى: ﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ**﴾[22].

– الإخبار عن صورة موسى الجسدية بوساطة ابنة شعيب، عندما عادت مع اختها، بعدما سقى لهما موسى؛ إذ طلبت من أبيها أن يستأجره لأنه قويٌّ وأمين[23].

2–البعد الاجتماعي للشخصية:

أ– شخصية يوسف:

إن المتمعن في قوله تعالى:﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾[24] يستكشف أن شخصية يوسف موكلة لرؤيا من عند الله، ومؤداه أنها ضحيّة حسد وغيرة؛ إذ أنّ قلة ثمنه المادي تظل ترافقه طيلة وجوده مع المشتري، وتحت سلطة زوجه، فهو فتاها الذي اشترته.

ب– شخصية موسى:

إنّ المتأمّل في قوله تعالى:﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾. تتجلى أمامه الحياة الاجتماعية الفقيرة التي كان يحياها سيدنا موسى، فلا مجال للمقارنة بين أموال فرعون وكفاف موسى وفقره.

فنستنتج مما سبق أن الحدث في السرد القصصي في القرآن يتشكّل من صورتين اثنتين: صورة تتألف من حدث مألوف قد يجري به العُرف، والثانية تتشكل من لون تتولى زمامه رؤيا، ترسم معالم المستقبل لشيء سوف يكون، أمّا الشخصية في السّرد القصصي القرآني فلها حدوث فعلي

يمتد بأثره إلى الحاضر، وهي تقوم بدور الهداية المستمرة، إذ تتمظهر ببعديها الحسي والاجتماعي في مثل شخصية يوسف وموسى عليهما السلام.

هوامش البحث:

[2]– سورة هود، الآيتان:42–43.

[3]– ينظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982، ص34.

[4]– سورة يوسف، الآية :100.

[5]– ينظر: خالد أبو جندي، الجانب المعرفي في القصة القرآنية، دار الشهاب، الجزائر، 1994، ص149.

[6]– سورة يوسف، الآية : 16.

[7]– ينظر: مصطفى محمود، القرآن، محاولة لفهم عصري، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص170.

[8]– سورة البقرة، الآية : 259.

[9]– ينظر: محمد يوسف نجم، في القصة، دار الثقافة، بيروت، ص64.

[10]– سورة الأحقاف، الآية:21.

[11]– سورة الإسراء، الآية : 01.

[12]– سورة البقرة، الآية : 259.

[13]– ينظر: طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، ص50.

[14]– طول محمد، البنية السّردية في القصص القرآني، ص60.

[15]– سورة يوسف، الآيتان:8–9.

[16]– سورة يوسف، الآية : 23.

[17]– طول محمد، البنية السّردية في القصص القرآني، ص60.

[18]– سورة يوسف، الآية: 30.

[19]– طول محمد، البنية السّردية في القصص القرآني، ص64.

[20]– سورة القصص، الآية: 14.

[21]– طول محمد، البنية السّردية في القصص القرآني، ص64.

[22]– سورة القصص، الآية: 15.

[23]– طول محمد، البنية السّردية في القصص القرآني، ص65.

[24]– سورة يوسف، الآية : 20.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم .

1) خالد أبو جندي، الجانب المعرفي في القصة القرآنية، دار الشهاب، الجزائر، 1994.

2) طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية.

3) محمد يوسف نجم، في القصة، دار الثقافة، بيروت.

4) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982.

5) مصطفى محمود، القرآن، محاولة لفهم عصري، دار المعارف، القاهرة، ط4.